آفة الأخبار

مسألة تصحيح السند في الأخبار من المسائل المعول عليها كثيراً في الاسلام حتى عد ذلك من خصائصه وبه حققت السنة نحلها ونزحت عنها الزوائد ولم يبق مجال للوضاعين والقصاصين في شدة احتيالهم في بث مخترعهم وموضوعهم . ولاجل هذا الغرض ألفت المصنفات الكثيرة في الطبقات يعرف بها كل امرئ بما جرحه فلا يغتر الانسان بقوله مهما بلغ من زخرفه . ففي طبقات للمفسرين وأخرى للمحدثين وأخرى للفقهاء . وغيرها للمؤرخين وغيرها للنحويين والمتكلمين والأدباء والفلاسفة والأطباء تطلعك على المعرفات من النسب لهم او الضرب في القدح فيهم

وبذلك كان من السهل التمييز بين القول الموثوق به وبين غيره ورواج بضاعة الغش في هذه الاخبار لما كانت مشكلة الاسناد ترجع الى الوضاع بكثرة وضوابط محررة فلا يجد العامة يعقل نقله مؤلف هو في الطبقة من الثقة بقدره مؤلفة مكتوبة في الورق منشوراً سبقه منذ نحلة .

ولقد كان ولا يزال بعض من يعانون صناعة التأليف ينقلون الخبر بعد الآخر في مسائل يحظرون فيها الى الآخذ ومنشأ ذلك الى ما يعرف المحققون عدم تصحيح السند والنقل والخط الاول في مراجعة بدون تمحيص حتى لم تكن تخلو كتابة الكثيرين من الماضين يشين منها مواردها ويخرج ضعفها .

مثال ذلك اختلاف بعضهم في امر الخلفاء وما كانوا عليه من الطرب والاخلاق فكان بعضهم يمدح سيرهم حتى يستعظم كل الأمثال . وبعضهم يذمونهم حتى يجعلوا بهم عرائس للاختلاف كلا الامرين الإفراط والتفريط . فقد رأينا بعض الوضاعين وارباب الاهواء السيئة يعتدون على العباسي كالرشيد والمأمون مثلاً بالباطل والاسترسال في الخلاعة ولم نر مؤرخاً واحداً من ثقات المؤرخين صحح هذه الاخبار فكان مدون تلك الروايات يحاول الحط من الخلفاء فيخرجهم مثالب لو ان ينقلها بعض أرباب النحلات والأهواء — وأكثرها جاءت ايضاً من روايات سياسية — ويقصد منها غرضاً من الاغراض او يختار منها الآخذ وما أكثر الثقة في المؤلفين . ومن الحكايات المشهورة الاغراض التي بها اصحابها ممن لم يصححوا النقل في النسب الذي حول الرشيد في نكبة البرامكة من قصة العباسة اخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه والله تكلله

بمكانيهما من معاقرته واباحها الحمر اذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة وان العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة لما شغفها من حبه فحملت ودعي ذلك للرشيد فغضب ونكب البرامكة

وقد رد ابن خلدون على هذه التهمة الشنعاء احسن رد معقول لدفع هذه الفرية عن ابنة خليفة واخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول قريبة من عهد البداوة وسذاجة الدين وماهذه التهم الا مما وضعه الوضاعون يقصدون التوصل منه الى النيل من اولئك الخلفاء بهذه الطرق السافلة واغراء الناس على اتيان المنكرات ليقول العامة اذا كان مثل الرشيد يعاقر الخمر ويقدح في مروءته في مسألة تزويج اخته فاولى بنا ان لانتشدد في قيود الدين والآداب ونحن بعد ماسمعنا وقد قال الطبري وهو من اثبات المؤرخين والمحدثين ان الرشيد كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاماً ويحج عاماً . اما الشراب الذي يرى بنو العباس بتناوله فكان عصير التمر وقد افتى بحله الفقهاء .

واما اذا اعتمدنا في اخبارنا على مثل كتاب اعلام الناس ونزهة المجالس وشمس المعارف وغيرها من كتب الموضوعات واعتقدنا صحة اقوال بعض ارباب الاهواء من المؤرخين لايكاد يبقى لنا بقية يعتد بها من الخلفاء والائمة مما كانت الامة تعتز الى اليوم بمحافظة بعض الشيء على آدابها واخلاقها . ومن ذلك ماوقع مؤخراً لصاحب مقالة تعليم النساء [1] فنقل ماقاله الادباء واكثرهم من المتحاملين على بني العباس في مذهبهم الديني والسياسي — في علية حفيدة المنصور وبنت المهدي واخت موسى الهادي وابرهيم ابن المهدي والرشيد والعباسة واسماء وعمة الامين والمأمون والمعتصم وانها كانت تشبب بغلامين لها ورشا وان الرشيد لما آنس منها ميلا الى طل وهو يا اباه وقبل رأسها وقال لها لست امنعك بعد اليوم من شيء تريدينه !

ولئن رجح الكاتب الرواية الثانية لما عرف من انفة الرشيد وغيرته ولكنه كان عليه طرح هذه الرواية المدخولة لاول نظر قياساً على نظائرها مما روي عن ارباب الخلاعة من الماجنين من الشعراء والوضاعين من اهل الاهواء ممن يريدون الاعتذار عن سيئاتهم باتهام العظماء بهذه التهم الشنعاء ليكون الناس في الخزي والبلاء كاسنان

(١) المقتبس م ٥ ص ١٧٢ لسليم بك الخوري

الشط في الاستواء وللطاود صاحب الكبائر لو كان الناس كلهم شركاء فيما يقترفون .

واذا وضعنا هذه الرواية في محك الروية نجز عنا لاول نظر بانها لا تصدر عن عامة الناس في عصر الرشيد والمأمون فضلا عن عصر بلغ الغاية في الآداب والعلم والصيانة فكيف يعقل صدور ذلك من خليفة وابنة خليفة واخت خليفة ولو وجد عقلاء عصره ورجال دولته اقل نقد عليه لما سكتوا عنه ولو اغمضوا عيونهم لما خفي امره على الطالبيين القائمين بالدعوة الى اهل البيت وهل احسن لهم ذريعة في اسقاط الرشيد والمأمون من نسبتهما الى امور لو ثبتت قلها لكانت تقصيهما عن منصب الخلافة ولو كان اهل الارض ظهراء لهما

ان اخلاق السوقة تأنف امر الحق الرمي بما اتهمه اهل الطعون عن الرشيد وسماحه لاخته بعشقها وقوله لها انه لا يصدها عن اتيان ما تريد اذا كان فيه هوى نفسها ! وان نسبة تلك الاشعار في النسيب والتشبيب الى امرأة كاملة من افضليات النساء لا يرضى به السوقة دع عنك الخلفاء بعد الذي علمناه من ان العرب كانوا يقتلون من نالهم من تشبيب وتفحش في عرضها فكيف يصح هذا نثق برواية الصبهاني في عليه وهو اموي والاصفهاني وهو علوي ومعاداة العلويين والامويين لبني العباس معلومة مشهورة لدى الادباء والمؤرخين الاعراب لادهاش الناس معروف موصوف ومتى كانت تؤخذ حقيقة ثابتة من اديب او قصيدة احالية عن شاعر .

والخلاصة ان كل ما اتهم به الوضاعون واهل الخلاعة بعض الخلفاء الاول من بني العباس فذلك من نكت العباسيين في اسرار دولتهم ولانهم اعطوا الامة حرية أمنت فيها ان يوجه ارباب الفطرة اقرب الى العبث بعقول العامة من نشر تلك الموضوعات والخزعبلات بين العامة والخاصة كما اشاعوا سوء الظن عن البرامكة وعلية والناس اميل الى الشر منهم الى الخير والى كسر القيود اكثر من الاحتفاظ بها والى الاقاصيص المزل والسخيفة الهزل اكثر من روايات الجد وتنقيب الحقائق . . . كل ذلك يدعو الى تمحيص ما حاجتنا اليه في التأليف والمؤلفين اكثر حتى لا نغتر بكل قول ولا نصحح كل نقل